كان ابى صـــورة فـريدة فى هـذا الزمان ...

كان فظا ، شديد القسـوة ، هائجا دوما كالاعصـار ، ثائرا ثورة البركان العنيد ، حانقا ابدا ، بسبب وبلا سبب ، ولم اعـرف حقيقة ما يدور فى ذهنه . وكنت اراه طيلة سنوات حياتى فى غيظ متصل وغضب جامح .. رباه !! ترى كيف يسلك مع الناس درب الحيـاة الطويل ؟! ...

كان نارا موقـدة تحت قدر أزلى ، يحرق بأواره المتأجج من كانوا حوله ، انا وامى واخوتى الصغار ، فكنا جميعا نتقلب فى مياه غضبه الغالية بلا استثناء ... حتى الصـغير المرضـع ، وكنا جميعا صابرين ، بانتظار رحمة الله .

وكنا نتحاشاه ، كنا نهرب أو نتهرب منه ، فان حـدث ورددت عليه ، كان الخطب الهائل والمصيبة الكبرى ، ومع هذا فقد لازمت الصمت وعشت ماغصا الضجر والتألم ، كابحا جماح الغضب الذى يدمدم فى دخيلتى احيانا ..

حتى كانت تلك الساعة !!

ودلفت الى بيتنـــا مسرع الخطو ، وما لبثت أن تباطأت أقدامى حتى شدت الى الارض وجمدت فى وقفتى مما عرانى من خوف ، ونفذ ثقل الصمت الرهيب الى قلبى ، وصرت انقل نظرات وجله بين الوجوه القريبة ، فقد اسـتشففت نذر العاصفة الهوجاء من قدحات العيون من حولى ولم انبس ببنت شـفة حتى ارتفع صوت ابى قائلا :

ـ أين كنت ... ؟

فاضطربت للحظات ، ونظرت الى أمى مستغيثا ... ثم قلت بنبرة متعثره :

ـ هـ .. هنا ...

ـ هنا ... اين .. ؟

ـ هنا ... ف .. فى الشارع

ـ شارع امك . ابيك ؟! تغيبون من الصباح الى المساء كان ليس عندكم بيت تاوون اليه ... الا تخجل .. ؟

فاطرقت مركزا نظراتى على أصابع قدمى ، بينما تابع وقد اشتدت ثورته وعلا صياحه :

ـ الى متى .. الى متى اشتغل وارمى بافواهكم .. لقد عجزت .. والله عجزت ...

وظل الصمت جاثما بقسوته ،مكمما افواهنا ، ولما لم يجد من يبادله الصراخ اقترب منى وانهال على صفعا ثم اخذ بخناقى صائحا :

ـ امكم .. امكم هى السبب .. **بنت الكلب اضاعت كل امل فيكم ..** افسدتكم بافكارها السخيفة ...

فخنقتنى العبرة ، وشحب وجهى وارتعدت من الخوف ، وتركنى وطفق يصفق يديه ويدمدم ثائرا متوعدا ، وما ان اقترب من امى حتى ركلها بقسوة صارخا بوجهها :

ـ كل شىء منك .. انت .. انت السبب يابنت الكلب ...

واقترب اخى الصغير من امه لائذا باكيا يطلب بضعة فلوس ... وياللهول ما كان ... امتدت يدا ابى الى الصغير وامسك به من اعلى ثوبه ، وجره على الارض ثم صفعه صارخا :

ـ حتى انت !! حتى انت تاثرت بامك

ثم دفعه دفعة قوية ،وكان فى ذروة غضبه وفورة حنقه ، فما ان صرخت امى فزعة منه حتى هجم عليها وقبض على عنقها ضاربا وجهها بكلتا يديه ، وهكذا خط الخطب الفادح ، نزلت المصيبة فى دارنا ، وحينما حدثت المعجزة ... حينما انفلتت كلمات واهنه من شفتى :

ـ بالحيـاتنا !! متى نخلص من هذا الجحيم ... ؟!

ولم ادر كيف نطقت بهذا .. ؟! فقد انطلقت الكلمات دون ما وعى منى ... وفغرت فمى دهشة وانهال على صفعا .. وازددت جمودا ، وظللت احدق فى الفراغ العاوى باعماقى ، وزاغ بصرى عن الاشياء والناس المتناثرين من حولى ... وصفعة اخرى ، وارتجفت شفتاى ، وخنقتنى العبرة ، بل مزقت أحشائى . وتوالت الصفعات .. ولم اتحرك ... وركلنى ، ودفعنى بعيدا فتصلبت . وجمدت ملامحى .. وقلت بصوت منخفض :

ـ كفى .. اليس من حد لهذا .. ؟

وتأففت وهززت راسى .. ونظرت الى من حولى مستنجدا .. ولاول مرة وقفت ، وقفت متحديا مخالفا طبيعة الخنوع فى ... وعنفت نفسى على موقفى الا انى صرخت غير عابىء بشىء :

ـ ماذنبنا .. ؟ لم تسومنا العذاب؟ اننا اناس ونريد ان نحيا كحياة غيرنا من الناس ..

« رباه !! من اين جاءنى هذا ... ؟ من اين ؟! »

ولاول مرة ايضا قال ساخرا منى ..

ـ من علمك هذا .. ؟ انت انسان .. !! هممم ..

فقلت وقد استرددت شيئا من قدرتى على الكلام :

ـ طبعا انسان ... وساحيا كاى انسان ...

ـ اخرس **يابن الكلب** والا حطمت راسك ... والا ...

ـ اطردنا اذا شئت .. اطردنا ... فقد سئمت حياتى ...

ودفعنى صوب الباب صائحا :

ـ اغرب عن وجهى ... اذهب .. فانى لا اريد رؤيتك ... ياعاق ... ياسافل ...

***

ودوت صرخات حادة فى راسى ، وطنت الريح فى اذنى طنينا ممضا ، وتعالت اصوات عديدة ولم اع شيئا ، وتحركت قدماى بجهد ، وبارحت بيتنا وانا ارد بحنق « لن ارجع لهذا البيت .. لن ارجع .. » واجتمع الناس فى دارنا بينما تابعت سيرى الوئيد ، وفكرى الشارد يجوب آفاقا بعيدة الغور فى راسى دون ان يقرلى قرار ، وصحت « ليذهب كل شىء .. وماقيمة المدرسة ما قيمة الحياة بلا كرامة .. بلا عزه .. » وثرت واوغلت فى ثورتى الجنونية ..

لكن هواجس عنيده تحركت فى صدرى ، وصرخ هاجس « اخسأ يا هذا .. اهكذا تكون مع ابيك ؟ .. » وقلت بمرارة : « ولكنه ظالم .. قد سحقت قسوته كل امل لى فى الحياة .. رباه .. اين انا ..؟ انت معينى يارب .. » وتأوهت .. وزفرت زفرات متتابعة : وتابعت سيرى ، وكنت اهز راسى واحرك يدى دون انانعبا بمن فى الشارع ، واخيرا قر رايى على ترك البيت الى الابد ، وان كان فيه تحطيم مستقبلى ، مستقبلى كطالب فى الصف الرابع الاعدادى « وما قيمة كل هذا بدون حرية ؟!.. »

كنت فى الثامنة عشرة من عمرى وقتذاك .. حينما دفعت بنفسى الى زحمة العمل هربا من جحيم بيتنا وقسوة ابى ، وقيوده القاتلة ، واخذت المدينة ،لكن كيف وانا لا املك نقودا ؟! كيف سأتركها ، وتركت كل شىء لله .. وتابعت سيرى ..

ومررت بسيارة ضخمة كان القوم مشغولين بنقل اكياس الحنطة اليها . فامتلأ نظرى بهيكلها الكبير وفراملها الجبارة ، فقلت فى نفسى « بها .. بها .. سأهرب » فراقبت القوم عن كثب متحينا الفرصة لاعتلاء اكياس الحنطة « انهم لن يعرفوا شيئا عن هربى ولا الجهة التى انتويت وفجأة قلت « رباه!! ماذا يكون من امى .. انها لا تصدق بانى اهرب .. فكل آمالها معقودة على .. وذلك القاسى .. انه لم يدر بخلده بانى استطيع الهرب .. اذن ليرى ..» وانتبهت على صوت السيارة يصفق فاتجهت اليها حتى حاذيت مؤخرتها ، وما ان دوى بوقها وشاعت الحركة والاضطراب حتى ارتقيت معتمدا على حافتها الخلفية ، وهناك طالعنى وجه كالح لشخص منطرح على الاكياس ولبضع دقائق اخذ احدنا يحملق فى وجه الآخر ، ثم ابتسمت بينا ظلت علامات الاستفهام والتعجب مرتسمة على ملامحه ... فقلت : السلام عليكم ... فرد : عليكم السلام ..

ولم يرفع نظراته عنى ، وبحثت بنظراتى بين الاكياس ، وما لبث ان استرجع نظراته ولم يقل شيئا ، وشعرت ببعض الحرج فقلت !

ـ اعتقد باننا سنصل الى مدينة (ن) قبل الظهر ...

وواصل صمته ، وكانت السيارة قد قطعت بضعة امتار فى سيرها ، وهكذا اجتزت هذه المحنة ثم تقربت اليه وفتحت صدرى له بغير ما اكنه ،

وفتح صدره لى فعرفت انه الوحيد لعائلة تتكون من امه واخواته الاربع وقد اضطر للاشتغال بعد وفاة أبيه ، افضى الى بذلك وسيما الاعتداد تثير وجهه ، فقلت فى نفسى « ومالى انا ؟! لم لا أحذو حذوه فاشتغل لنفسى..؟»

وفى مدينة (ن) شاركتهم فى التفريغ مع الحمالين فاصبت ثلاثة دراهم « رباه !! حمدا لك يا رب » قلت هذا وانا اقلب الدراهم الثلاثة فرحا ، ثم انطلقت اجوب الأزقة والطرقات والأسواق بحثا عن عمل .. اى عمل كان ، فكنت اتسمع واسأل .. ومضى اليوم الأول، ولم أعثر على ما انشد ..

وتذكرت ساعة يدى ، وقررت بيعها . فما حاجتى بها ؟ وبعتها ، وقبضت ثمنها ، ثلاثة دنانير ونصف.. « انها ثروة » وبحثت عن فندق حقير، من الفنادق التى تمرح فيها الجرذان والصراصير .. وما عتمت ان وجدته .. وصرت أدفع ثمن نومى .. درهما كل ليلة ...

وكنت على يقين بأى نقودى فطريقها الى النفاد .. فتفكرت .. وتفكرت ، وبينما كنت جالسا فى الفندق ، اذ لمحت صباغا للاحذية متابطا أدواته ، مارا بالجالسين فى المقهى ، يسأل هذا وذاك وينهمك فى عمله بصمت ... « انه يعمل !! » قلت هذا وزممت على شفتى ...

وبارحت الفندق من فورى، ورحت أفتش حتى عثرت على بغيتى .. وصرت اصبغ الاحذية امام عشرين فلسا ، ووجدت سعادة عظيما بعملى .. واخذت اقتر على نفسى فلا انفق الا بمقدار ، اجمع النقود الى يوم العسر .

وذات يوم ... بلغ بى الضيق مبلغه ، فقد شارف على الانتهاء ولم اصب غير عشرين فلسا اجر حذاء واحد ، وطفقت الج المقاهى وأبحث واسأل دون جدوى ، فبعدت كثيرا واوغلت ملاحقا رواد المقاهى ، سائلا رواد الحدائق العامة ، حتى انتهى بى المطاف الى مقهى مغبرة كالحة ، فأردت ان أعرض عنها الا انى دلفت اليها ولا ادرى لماذا ! ! وبنفس اللحظة دخلها صباغ آخر ، فشعرت بشىء من الحنق،وهممت بالسؤال لكنى اكتفيت بنقل نظراتى اليائسة بين وجوه الرواد ، بينما مضى الآخر يسأل حتى حصل على حذاء يصبغه وبقيت انا « آه .. يا للحظ .. ! الويل لى منه اذا ادبر » وتأففت ، ثم خرجت خائبا خطاى الى الفندق وانا أقول « انه ليوم نحس فما اجدرنى بالاعراض عنه . ودلفت اليه اخيرا ، فرميت بكل ادوات الصبغ بعيدا عنى وتوسدت ذراعى مخفيا وجهى فى الوسادة . . فما امر الخيبة ... ! !

وتتابعت الأيام تاركة رعشات قاسية فى قلبى ، ومضات خفيفة فى اعماقى ، وجفافا فى حلقى ، فماذا أستطيع وعجلة الزمن تغرس اسنانها الحادة فى حنايای يوما بعد يوم ..

***

انقضى على هروبى ستة اشهر ، فلم اسمع عنهم شيئا ، ولم اترك ماينبىء عنى ، حتى اسمى غيرته ، فعلت كل ذلك لأمحو كل اثر للوشائج التى تربطنى بذلك الأب ، لكنى لم ارتح لبعادى عن البيت ، فان هناك امى ، واخوتى الصغار ، فما ذنبها تتعذب من اجلى ؟ ماذنبها لتبكينى وانا على قيد

.. لكن عل هذا يلقنه درسا !!

وكانت ساعات خلوتى ساعات اسى واتراح ولوعة ؛ اهرع فيها الى دموعى فاطلق لها العنان والتجأ الى الله استمحيه الغفران « رباه !! كم تحملت من الآلام وكم ساحتمل !! » فكنت اشوه مشاعرى واقلب دموع شجنى الى دموع فرح وغبطة بحياة الانطلاق والحرية الجديده ، فانكر وخزات الالم واستنكر عواطف الشوق ما وجدت الى ذلك سبيلا وان عدمت السبيل القيت بنفسى فى احضان الدموع ، فكانت افكار الندم والخوف والحرقةالشديدة تضج فى راسى فتتركنى فى وهم من نفسى وشك مما ادعيه ، تائها فى حياة ضبابيه متخبطا فى ازقة مظلمة ، سائر فى دروب تكتنفها الحيرة والقلق والغم العظيم ؛ وكثيرا مارددت مؤنبا نفسى « لقد ركبت شططا لا يصلحه الا الله !! لاننى متهور .. سخيف جدا .. والا فما معنى هذا ؟! » .

الله الله مما فى صدرى من مشاعر !! الله الله مما فى قلبى من نار ندم والتياع لاذع .. « ماذا عملت يارب ؟! اكاد اموت كمدا ولوعه .. اكاد اذوب حسرة .. » الصرخات الداويه فى اعماقى تمزق سكون نفسى وتقطع نياط قلبى كلما خلوت الى نفسى ،كلما طلبت الراحة مما اعانيه من نصب شديد .

واصبحت فى ازمة نفسية حاده ، فصرت اغضب لاتفه الاسباب ، اخرج حانقا وادخل حانقا ، ولفائف التبغ تأخذ طريقها تباعا الى فمى ، حتى اعتدت تركها بين شفتى دون ان المسها حتى تنتهى فامد يدى لارمى بعقبها الى اهرب من الناس ، اخشى كل شيء . حتى انفاسى فتكصت على نفسى والحقد الشديد يعمر دخيلتى على ذاتى الوجده ، التى لم تربأ عن كل صغيرة .. فيالنفسى منى ، ويالى منها ، بل ويالنا من الايام !!

ذات صباح .. خرجت مبلبل الخاطر ، مشتت الافكار ، اشعر بضياع شديد فى تيه لاحد له ولا مدى ، ضيقا بنفسى اشد الضيق ، تائقا لرؤية مدينتى توقا تضرم ناره رغبة جامحة لرؤية بيتنا الحبيب وامى والصغار .. بل وأبى العزيز .. أبى الذى صرت اسمع لكل كلمة سمعتها قبلا الحانا من الحنان الفياض والعطف الزاخر . فكم هزات بنفسى عما رايته منها .. !!

واخذت افكر بوسيلة للذهاب اليهم .. طال تفكيرى دون جدوى ، واتصل هيام روحى فى رياض احلام اليقظة العذبة .. فكنت أتمثل أمى وأبى والصغار .. شريطا لذيذا من الاحداث .. وللحظات ، خيل لى بانى بينهم اسمع حديثهم واسمعهم حديثى ، وهم يلتفون حولى يمعنون النظر فى «رباه !! أيمكن ان يكون هذا حقيقة .. ؟! » فلم انتبه الا وانا اتجاوز المقاهى .. فوجدت نفسى فى السوق .. وفى ركن لبيع الخبز ، فتطلعت الى من حولى ذاهلا .. فكيف قطعت الشوارع واكثر السوق دون ان انتبه لحركة قدمى ..

ومن خلال نظراتى الساهمة ، نفذت صورة صبى صغير ممتقع اللون الى قلبى فاهتز اهتزازات عميقة وطفرت الدموع من مقلتى ، فنسيت نفسى ، ونسيت كل شيء ، وغبت فى عالم غير عالمى الذى اعيش فيه ، فعانقت روحى

ذلك الخيال قبل ان افيق من دهشتى .. فما ان افقت حتى هرولت نحوه تاركا ادواتى فى مكانها ، وامسكته من ذقنه وقبلته عدة قبلات ، فامسك ذلك الطفل بيدى مجاهدا لابعادها عنه فقد اذهلتـه المبـاغتة ، وللحظة !! التقت نظراتنـا وشردت روحـانا فدلفنا كل الى اعماق صاحبه ، وران صمت لم نسمع خلاله غير وجيب قلبينا ثم صرخ كل منا مناديا الآخر .. وتعانقنا .

ولم اعبأ باحد .. رفعته الى اعلى واجلسته على صدرى ، واضعا خده على خدى متشممارىحه ، متلهفا لضمه فى صـــدرى ، فقد كان اخى ، اخى ذا الخامسة من عمره ، اخى الحبيب سالم !!

وتحركت عينـاه باضـطراب ، ثم مالبث ان طفق يبكى ، فذرفت دموعى بصمت وانا التمس منديلى مضطربا لا لامســح دموعى وقد خنقتنى العبره «الهى .. حمدا لك .. شكرا فلطالما رعيتنى !! » ضممته الى صدرى ، ولم استطع الكلام ، ولم يتكلم هو .. لم يتكلم ابدا ، ولم يتركنى فقد وجد راحة عميقة فى ضمى له ، ولما انعمت النظر فى المكان رايت طبقا واســعا مليئا باقراص الخبز الطازج ، ارغفه ساخنه، وعرفت انه يبيع الخبز فصرخت فزعا ذاهلا :

ـ وابى ياسالم .. ؟ ابى اين .. ؟؟

ولم ينبس سالم ببنت شفه فقلت :

ـ كيف تركك تبيع الخبز ... ؟

« ترى ماذا حـــدث .. ؟ ما الذى اراه .. ؟ .. رباه لكم اخشى .. »

وبكى ســـالم ، وبكيت انا الآخر « رباه !! انى استجير بك من كل شىء .. رباه اليك امرى .. » وانحنى سالم على طبقه ورفعه قائلا من خلال دموعه:

ـ لنذهب الى البيت .... فامى هناك ...

وابى ياسالم !

الا تتكلم ؟!

فنظر الى نظرة كسيره ، فيها الكثير من الالم والقهر ، ولم يتكلم .. بينما انهمرت دموعه بغـزاره عـلى خـده الشـــاحب ، واودعت ادواتى عند «عطار» قريب ومضيت معه الى البيت والف علامة استفهام ترتسم امامى فى الهواء متحديه كل همســة دافئة تلج قلبى من فم سالم الصغير ... « فاين انا ؟ .. وكيف جاءوا الى هنا .. ؟! وابى .. ؟؟؟ .. » كل هذه **التساؤلات**، وحشد كبير منها جالت فى راسى وكل شىء حولى غارق فى الصمت ، كل شىء يسبح فى بحر من الغموض ، معتم ، ثقيل ...

سار سالم وتبعته متفحصا الوجوه « آه .. لعلى ارى ابى فى الطريق .. لعلى التقى به مصادفة فليس من عادته البقاء فى البيت » هكذا قلت لنفسى وانا اتبع سالم ، اقتفى اثره ولهفتى تسبقنى وتسبقه الى الطريق ...

وفى طـرف من المدينـة .. طرف تعشعش فيه القذارة ، ويؤمه البؤس كل لحظة . طرف جل ما فيه كوم نتانة وقبح .. اقتادنى اخى ســالم اليه ، فاين هذا من طرفنا الزاهى البديع فى مدينة آبائى واجدادى .. ؟! اين بيتنا من مثل هذه البيوت التى حط عليها البؤس فغدت قذرة المظهر ، ذرية الهيكل كانهـا حظائر حيـوانات افقر الناس واقذرهم ..

وشققت طريقى معه وروحى تكاد تزهق مما اجتـاح اعمـاقى من نفور

حقدا لذلك الحي من اول وهلة رايته فيها . بينما رحت عيناى تجوبان اطراف الحي وزواياه وتتسللان الى مداخل البيوت بحثا عمن اريدهم . فجاست كل منعطف وكل ملتوى دون ان يبلغها الكلل . حتى وقفت على شبح محنى القامه .. امام بيت قدر كئيب، يسربله العوز بسربال التعاسة والشقاء، فعرفت فيها امى الحنونه !! كانت تعد عجينا ، فلهثت انفاسى وشعرت باللهفة الشديدة والفرحة العميقة يعتملان فى صدرى فاسرا قلبى لقوتهما ، وبقيت مسمر القدمين بينا ركض سالم بقوة الى امه .. ومن بعيد اخذ يصيح :

ـ اماه .. اماه .. هذا حامد

ـ حامد .. ؟؟ .. حامد .. ؟؟ ..

ورفعت راسها بشهقه .. ووقفت تنتظرنى للحظة !! ثم صرخت من اعماق ام مكلومة :

ـ حامد .. ابنى .. حامد ...

واقبلت على راكضة وقد نسيت ملاءتها فى مكانها ، فجاءتنى بثوبها الفضفاض فقط والقت بنفسها على وكانها تريد ضمى بصدرها ، امسكت بابطى واخذت تنتهمنى بقبلاتها ، صارت تقبلنى فى جبينى وفى راسى .. بكل شبر من جسمى مجهشة ببكاء مر .. ثم اخذت تحملق فى ، تحدق فى بعينين مغرورقتين بالدموع ، ثم طفقت تقول :

ـ حامد يابنى ... لم فعلت هذا .. ؟ فعلت بنفسك ، وفعلت بنا .. كيف استطعت العيش بدوننا ..؟! رباه .. لم اكن اتصور انك قاس الى ذلك الحد ولم اعرف ابنا عمل مثلك ياحامد !« وطفقت تبكى .. فبكيت ، وكطفل غرير !! انهملت الدموع من عينى وسالت على خدى دون ان اتذكر عزة .. او كرامة ، او اعتدادا بالنفس ... من خلال وجيب قلبى المرتفع :

ـ امى .. اين ابى .. ؟ .. ابى اين ياامى ... ؟!

فطفحت عيناها بالدموع ، وتجهمت ملامحها وكساها الحزن العميق ، حتى خيل الى بانه قضى عليها ، ثم اتانى صوتها خفيضا كسيرا يحمل الكثير مما نالهم فى سبيله :

ـ لقد سجن ابوك ياحامد .. سجن بسبب مشاجرة مع احد ارباب عمله .. بعد شهر من هروبك ... وقد حكم عليه بالسجن لمدة ثمانية اشهر ..

وهممت ان اسالها عن سبب وجودهما هنا .. لكنها استطردت :

ـ ولشهر خلا .. نقل الى سجن هذه المدينة .. فكان علينا ان ننتقل .. وهكذا ترانا .. انا اخبز وسالم يبيع، فنحصل على قوتنا ، ونشترى له مايحتاجه .. ندفعه له فى اوقات مخصصه

ـ سجن ابى ... سجن .. ياللمصيبة !!

وضربت كفا بكف ، وتبلدت ملامحى .. ووهنت انفاسى ، فجف حلقى ولم استطع بلع ريقى وظلت نظراتى شاردة تائهة .. لا هدف لها ..

وفى صباح اليوم التالى ...

اجتمعنا انا وامى .. واخوتى الصغار وحملنا بعض الطعام وعلبه السكاير والثقاب وتوجهنا الى السجن .. وهناك نسيت كل شىء .. واقبلت على ابى تلتهم الآلام كل جوارحى ، دامع العينين ، اطلب منه العفو والمغفرة .. فكان جوابه وهو يربت كتفى بحنان ابوى كبير :

ـ لاضير عليك يابنى .. وستستفيد كثيرا مما حدث ... فالحياة تجارب وعظات .. !!